﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النّحل: 84]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّخويفُ بالبعثِ من أجلِّ المقاصدِ وأعظمِها

لمّا ذكر اللّهُ تعالى كفرَ المشركين باللّه ونِعَمه، بعد ذلك بيَّن حالهم بعد البعث؛ إذ منْ أجلِّ المقاصدِ وأعظمِها التخويفُ من البعثِ والنّشورِ، وليسَ بعدَ الإعراضِ عن البيانِ، والإصرارِ على كفرانِ معروفهِ تعالى إلّا المجازاةُ؛ والآخرةُ ليست بدارِ تكليفٍ[1]، بل هي دارُ الجزاءِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبْعَثُ﴾: (بعث): أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إثارة الشَّيء وتوجيهه[2]، البَعْثُ في كلامِ العَرَبِ على وجهَين: أحدُهما: الإرْسال، كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]؛ مَعْناهُ أرسلنا، وانْبَعَثَ الشَّيءُ وتَبَعَّثَ: انْدَفَع، وبَعَثَه مِنْ نَوْمه بَعْثًا، فانْبَعَثَ: أيْقَظَه وأهَبَّه[3]، والمقصود بالبَعْثِ في الآية: إحضارُهُ في المَوْقِفِ[4].

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: الأُمَّةُ بمعنى مأْمومَةٍ، اشْتُقَّتْ مِن الأَمِّ - بِفَتْحِ الهَمزَةِ - وهو القَصْد؛ لأنَّ الأُمَّةَ تقْصِدُها الفِرَقُ العَديدَةُ الَّتي تَجمَعُها جامِعَةُ الأُمَّةِ كُلِّها، مِثْلُ الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ؛ لِأنَّها تَرْجِعُ إليها المذاهِبُ الإسْلامِيَّةُ[5]، فالأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 228 - 229.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 721.

الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[1]، والجَمعُ: أُمَمٌ، والمقصود بالأمَّة في الآية: الجَماعةُ العَظِيمَةُ الَّتِي يَجمَعُها جامِعٌ له بالٌ مِن نَسَبٍ أو دِينٍ أو زمانٍ.

3) ﴿شَهِيدًا﴾: أصْلُ (شهد): يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[2]، مِنْ ذلكَ الشَّهادَةُ، يَجْمَعُ الأُصولَ الَّتي ذَكرناها من الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعلامِ، يُقال: شَهِدَ الشَّيْءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، والشَّهيدُ: القَتيلُ في سَبيلِ اللّه، قالَ قَوْمٌ: سُمّيَ بِذَلِكَ لِأنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَشْهَدُهُ، أي: تَحْضُرُهُ[3]، والشَّهيدُ أيضًا: الشّاهِدُ، وهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوَى مُدَّعٍ، والمقصودُ بالشَّهيدِ في الآية: الشّاهِدُ، وهوَ المُخْبِرُ بِالأمرِ الواقِعِ كما وقَعَ، والمرادُ: أنَّهُ شاهِدٌ على المُؤْمِنينَ بِهِ وعلى الكافِرينَ، أيْ: شَهيدٌ لأنَّهُ بَلَّغَهُم رِسالَةَ اللّه تعالى، وبَعْثُ شَهيدٍ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ يُفيدُ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شَهيدٌ على هَؤُلاءِ الكافِرينَ[4].

4) ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: العِلْمُ والإعْلامُ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[5]، وتَقولُ العَرَبُ: قَدْ أذِنْتُ بِهذا الأمرِ، أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فُلانٌ أعْلَمَني، وفَعَلَهُ بِإذْني، أي: بِعِلْمي، ويَجوزُ بِأمري، وهوَ قَريبٌ مِنْ ذلكَ، قالَ الخَليلُ: ومِن ذلكَ أُذِنَ لي في كذا[6]، والمقصود بالإذن في الآية: إجازَةُ الفِعلِ لِمَنْ يَفعَلُهُ، والمرادُ من نَفْيِ الإذْنِ هنا: كِنايَة عَنِ الطَّرْدِ، كَما كانَ الإذْنُ كِنايةً عَنِ الإكرامِ.

5) ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أصلُ (عتب): يَرْجِعُ إلى أمرٍ فيه بَعْضُ الصُّعوبَةِ مِن كَلامٍ أو غَيْرِهِ، مِنْ ذلكَ العَتَبَةُ، وهيَ أُسْكُفَّةُ البابِ[7]. يُقال: أعْتَبْتُ فلانًا، أي: أبرَزْتُ الغِلْظَةَ الَّتي وُجِدَت له في الصَّدْرِ[8]، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُكَ إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته، والتَّعَتُّبُ والتَّعاتُبُ والمُعاتَبَةُ: تَواصُفُ الموجِدَة[9]. يُقالُ: عَتَبَ عليه: إذا وجَدَ عليه، ويُقالُ: عَتَبَ عليه عَتْبًا،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن)، والمناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتب).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتب).
(9) الجوهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتب).

أي: لامَهُ في تَسَخُّطٍ، فهو عاتِبٌ وعَتّابٌ[1]، والعُتْبَى: الرِّضَى بَعْدَ الغَضَبِ، يُقالُ: اسْتَعْتَبَ فُلانٌ فُلانًا فأعتبَهُ، إذا أرضاهُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت: 24]، والمقصودُ بالاستِعْتابِ في الآيةِ: أنْ يُطْلَبَ مِنَ الإنْسانِ أنْ يَطْلُبَ العُتْبَى، وهيَ الرِّضا، والسّينُ والتّاءُ للمُبالَغةِ، والمرادُ: لا يَستَعتِبُهُم أحَدٌ، أي: ولا يُرضَوْنَ بِما يَسألون[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعيدُ للكافرين المنكرين وما يلقون يوم القيامة مِن عذابٍ وذِلَّةٍ

يخبرُ تعالى عن حالِ الذين كفروا يومَ القيامة وما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث مِن كُلِّ أمَّةٍ شاهِدًا عليهم - وهو رَسولُهم الَّذي أُرسِلَ إليهم - ليَشهَدَ بما أجابَتْه به أُمَّتُه فيما بلَّغَها عن اللّهِ تعالى، ثمَّ لا يُعطَى الذين كَفَروا الإذْنَ للاعتذارِ إلى اللّهِ مِن كُفرِهم، إذ لا عُذر لهم ولا حُجَّة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم، ولا يطلب منهم أحد في هذا اليوم العُتبى - أي أن يُرضوا ربَّهم بتوبةٍ أو عمَلٍ صالحٍ - فقَد فاتَ أوان ذلك حيث كانوا في دنيا التَّكليف، وقد أُعطوا الفُرصة فيها فلم يفعلوا، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك، فإنَّ الآخرة دارُ جزاءٍ[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اعتذارَ الكافرين بعد ما عُلم يقينًا بطلانُ ما هم عليه، اعتذارٌ كاذب لا يفيدهم شيئًا في ذلك اليوم، ولا يُقبل منهم أن يزيلوا عَتْبَ ربِّهم، وغضبَه وسخطَه عليهم؛ لأنَّ العِتابَ إنما يطلب لأجل معاودةِ الرضا من العاتب، وأنَّ هؤلاء القومَ قد انسدَّ عليهم طريقُ إزالةِ عتب ربهم؛ لأنَّ الله تعالى قد سَخِط عليهم سخطًا لا مجال لإزالته، بعد أن أصرّوا على كفرهم في الدنيا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عتب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244، و25/ 376.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 327، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 592، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن ص: 446، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 665.

وماتوا على ذلك، وإلى أنَّ الآيةَ الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قَبولَ أعذارهم، وقبولَ محاولتِهم إرضاءَ ربِّهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ في الدنيا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾:

التّذكيرُ بيومِ القيامةِ منَ البلاغِ المبينِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ دالةٌ على العطفِ؛ بأن عطفتْ هذهِ الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ على تقديرِ: واذكرْ أيّها العاقلُ المعتبرُ يومَ نبعثُ؛ فإنّ التّذكيرَ بذلكَ اليومِ يعدُّ من البلاغِ المبينِ بتبليغِهم رسالةَ اللّهِ[2].

بيانُ متعلَّقِ الظّرفِ ودلالتِه:

بقاءُ الظّرفِ بغيرِ متعلّقٍ يفيدُ التّهويلَ والتّفظيعَ

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ يومَ: منصوبٌ على الظّرفيةِ، عاملُهُ محذوفٌ بدلالةِ الكلامِ السّابقِ عليهِ على أنْ يكونَ تقديرُهُ بما يسمحُ بهِ المعنى منْ مثلِ: (نحاسبهُم حسابًا لا عتبَ فيهِ)، أوْ غيرهُ، وحقُّ العاملِ في الظّرفِ أنْ يكونَ ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، لكنّه لمّا جُعلَ معطوفًا على جملةِ الظّرفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ فصارَ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فغدا الظّرفُ خاليًا من المتعلّقِ؛ فيؤولُ تقديرهُ للسّامعِ بما يذهبُ إليهِ خاطرهُ بما يفيدُ التّهويلَ والتّفظيعَ[3].

إنذارُهم وتخويفُهم وترهيبُهم من ذلكَ اليومِ

واستهلّ الآيةَ بالظّرفِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ تخويفًا لهم وإنذارًا وترهيبًا، وقدّ حذفَ عاملهُ على تقديرِ: وخوّفهُم ذلكَ اليومَ الّذي نبعثُ منْ كلِّ أمّةٍ ما يكونُ شاهدًا عليها؛ تصديقًا بالإيمانِ وطاعةِ اللّهِ أوْ تكذيبًا بالكفرِ والعصيانِ[4].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن ص: 446، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 14/ 125.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾:

ولمّا تبيّنَ ممّا سبقَ أنّه خوّفهُم وحذّرهُم من اليومِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ وهذا ظاهرُ النّصِّ، فإنَّ المعنى أن يخوّفهُم منْ أثرِ ذلكَ اليومِ وعذابِهِ الّذي سيلحقهُم بموجبِ كفرِهِم؛ لأنَّ أسماءَ الزّمانِ والمكانِ ليستْ مخوفةً في نفسِها، وإنّما ما يكونُ فيها منْ أحداثِ البعثِ والنّشورِ والحسابِ والعذابِ والعقابِ[1].

التّخويفُ والتّرهيبُ من العذابِ الّذي سيلحقهُم ذلكَ اليومَ

إيثار لفظ ﴿نَبْعَثُ﴾ على (نُرْسل):

في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أوردَ الفعلَ الّذي يدلُّ على الإثارةِ (نبعثُ)؛ لأنَّ البعثَ فيهِ إثارةٌ نحوَ عملٍ ما[2]، والإثارةُ لا تكونُ إلّا عنْ ضعفٍ وسكونٍ؛ ففي البعثِ تحفيزٌ وتنشيطٌ، أمّا مرادفهُ (نرسلُ) فإنَّ الإرسالَ دالٌّ على السّهولةِ واليسرِ، ويَدلُّ أيضًا على الانبعاثِ الّذي يقترنُ بالامتدادِ[3].

الموقفُ ليسَ إرسالَ رسالةٍ، بل هو بعثُ الشّهيدِ الّذي ينبئهُم بعملِهِم في الدّنيا

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ المبدوءِ بالنّونِ:

واستعملَ صيغةَ المضارعِ المبدوءِ بالنّونِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ وهيَ نونٌ دالّةٌ على التّعظيمِ والتّشريفِ؛ للإيذانِ بأنَّ مثلَ هذهِ الأفعالِ العظيمةِ لا يقومُ بها إلّا العظيمُ سبحانهُ[4].

البعثُ أمرٌ عظيمٌ لا يقدرُ عليهِ إلّا العظيمُ سبحانهُ

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿مِن كُلِّ﴾:

وقدّمَ الجارّ والمجرورَ على مفعولِ الفعلِ ﴿نَبْعَثُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، لأنَّ المقصودَ أنَّ كلَّ أمّةٍ سيشهدُ عليها هذا الشّهيدُ، وهو الرّسولُ، فلو تأخّرَ الجارُّ والمجرورُ بأن يقالُ: (نبعثُ شهيدًا منْ كلِّ أمّةٍ)؛ لَتَعدَّدَ الشّهيدُ بتعدّدِ الأممِ، وصارَ هذا التَّعدُّدُ مقصودًا من الكلامِ، وهوَ غيرُ مرادٍ في

الاختصاصُ، فكلُّ أمّةٍ سيَشهدُ عليها رسولُها، لا أنّهُ سيكونُ متعدّدًا بتعدّدِ الأممِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(4) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

الآيةِ، بل المرادُ تسليةُ النّبيِّ بأنَّ كلَّ أمّةٍ سيُشهدُ عليها، وأنّ أمّتكَ منهم، وليسَ المقصودُ هوَ الكلامُ على تعدّدِ الشّهداءِ، وأنَّ عددهُم مساوٍ لعددِ الأممِ[1]؛ فإنّهُ وإن كانَ صحيحًا لكنّهُ غيرُ مرادٍ في الآيةِ، وما سيقت لأجلِه.

دلالة لفظ ﴿كُلّ﴾ وإضافته إلى ﴿أُمَّةٍ﴾:

كلّ إذا أضيفت إلى نكرة واحدة خرج الفعل على قدر النّكرة[2]، و﴿كُلّ﴾ تفيد العموم، وإضافتها إلى لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ - وهو نكرة - يؤكد ذلك العموم، أي بعثنا في كُلّ أمَّةٍ منَ الأممِ الخالية رسولًا خاصًّا بهم[3].

إيثار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ بدلًا من (طائفة):

واصطفى السّياق الكريمُ لفظَ الأمّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، ومعنى الأمّةِ كلُّ جماعةٍ يجمعهُم أمرٌ معيّنٌ جامعٌ تسخيرًا أو اختيارًا[4]، أمّا الطّائفةُ فهي في الأصلِ الجماعةُ الّتي تطوفُ في البلادِ، أو الّتي تستوي بها حلقةٌ يطافُ عليها، وقد تكونُ اسمًا لواحدٍ غيرِ متعددٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[5] [الحجرات: 9]؛ فالطّائفةُ هنا تصلحُ لإطلاقِها على المفردِ، والمعنى في الآيةِ الفِرَقُ الكثيرةُ الّتي تجمعُها جامعةُ الأمّةِ، كالأمّةِ الإسلاميةِ[6]، فبعثهُ الشّهداءَ يومَ القيامةِ يكونُ من الأممِ الّتي أرسلَ إليها الرّسلُ.

بَعْثُ الشّهداءِ يومَ القيامةِ يكونُ من الأممِ الّتي أُرسِلَ إليها الرّسلُ

لطيفةُ استعمالِ لفظِ الشّهادةِ في ﴿شَهِيدًا﴾:

واستعملَ لفظَ الشّهادةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ للدّلالةِ على النّبيِّ؛ فإنَّ شهيدَ كلِّ أمّةٍ "نبيّها يشهدُ لهم

الدلالةُ على الرسولِ الّذي بعثَ إليهم يشهدُ لهم وعليهم

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 309.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 112.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمّ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 334.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 721.

بالإيمانِ والتّصديقِ، وعليهم بالكفرِ والجحودِ والتّكذيبِ، قالَ ابنُ عباسٍ: شهيدُها نبيّها، على أنّهُ قدْ بلّغَ رسالاتِ ربّهِ"[1].

بعثُ شهيدٍ منْ كلّ أمّةٍ يفيدُ أنّه ﷺ شهيدٌ علَى الكافرينَ

ولفظُ الشّهيدِ من الشّهادةِ، وفي بعثِ الشّهيدِ منْ كلِّ أمّةٍ ما يفيدُ أنّهُ ﷺ شهيدٌ على الكافرينَ لقولهِ تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النّساء: 41]؛ لينتظمَ بذلكَ أمرُ العطفِ وصفًا لذلكَ اليومِ، وتنويهًا بشأنهِ[2]، والإشارة بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النّساء: 41] إلى كفار قريش وغيرهم من الكفار، وإنما خصَّ كفار قريش بالذكر لأنَّ وظيفةَ العذاب أشدُّ عليهم منها على غيرهم؛ لعنادهم عند رؤية المعجزات، وما أظهره الله على يديه من خوارق العادات، والمعنى: فكيف يكون حالُ هؤلاء الكفار يوم القيامة ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النّساء: 41] أمعذَّبين أم منعَّمين؟ وهذا استفهام معناه التوبيخ[3].

بعثُ الشّهيدِ الّذي يشهدُ لها أو عليها هو بعثٌ للأمّةِ وفي ذكرِهِ بيانٌ لمقامهِ

والشّهيدُ هو الرّسولُ الهادي والنّذيرُ، وفي ذكرِهِ فائدةٌ، وهو أنَّ بعثَ الشّهيدِ الّذي يشهدُ لها أو عليها هو بمنزلةِ بعثِ الأمّةِ؛ فدلالةُ بعثِ الرّسولِ صريحةٌ، وبعثُ الأمّةِ بدلالةِ الاقتضاءِ؛ ولأنّ في ذكرِهِ بيانٌ لمقامِ الرّسولِ ﷺ عندَ الحقّ ﷻ[4].

مَنْ كنتُم تحتقرونهُ وتكفرونَ بهِ ستكونُ شهادتهُ سببًا في دخولكُم النّارَ

وقدْ يردُ سؤالٌ وهو أنَّ الحقَّ سبحانهُ ليستْ بهِ حاجةٌ للشّهداءِ لإقامةِ الحجّةِ على الكافرينَ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّهُ تعالى يُشهدُ الشّهداءَ وهم الأنبياءُ على أقوامهم؛ إكرامًا وتشريفًا للأنبياءِ، وخزيًا للكفّارِ؛ فإنّكم كنتم تحتقرونَ رسلكُم، وتكفرونَ بهم، فها هيَ شهادتهُم ستكونُ سببًا وموجبًا لمصيركُم ودخولِكُمُ النّارَ[5].

(1) القنوجي، فتح البيان: 7/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 198.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿شَهِيدًا﴾:

دلالتُهُ على التّفخيمِ والتّعظيمِ فالشّهيدُ حجّةٌ على أهلِ عصرِهِ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أوردَ لفظَ الشّهيدِ نكرةً؛ للدّلالةِ على التّعظيمِ والتّفخيمِ كالواردِ عندَ سيبويهِ بقولِهِ: سيرَ عليهِ ليلًا ونهارًا على إرادةِ اللّيلِ الطّويلِ والنّهارِ الطّويلِ[1]، فالمعنى: أنّه تعالى يبعثُ "يومَ القيامةِ من أهلِ كلّ عصرٍ مَن هو حجّةٌ عليهم فيشهدُ"[2].

علّةُ استعمالِ صيغةِ (فَعيل):

وصفٌ يقتضي شهادتَهُ على المؤمنينَ والكافرينَ بأن بلّغهُم رسالةَ الله

واستعملَ لفظَ الشّهيدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، وهو وصفٌ زنةُ (فَعيل) على معنى أنّهُ شاهدٌ على المؤمنينَ وعلى الكافرينَ على حدّ السّواءِ؛ فهو شهيدٌ بأن بلّغهُم رسالةَ ربّهم[3].

دلالةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾:

الإقناطُ الكُليُّ من شهادةِ الأنبياءِ، زيادةً فيما يحيقُ بهم جرّاءَ ذلكَ المنعِ

وحرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾ مستعملٌ "لزيادةِ ما يحيقُ بهم منْ شدّةِ المنعِ عن الاعتذارِ؛ لما فيهِ من الإقناطِ الكلّي على ما يُمنَّونَ بهِ منْ شهادةِ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ"[4]، فبعدَ شهادةِ الأنبياءِ عليهِم يزادُ عليهِم بما هو أطمُّ من ذلكَ، وهو منعهُم من الكلامِ اعتذارًا أو إلقاءَ حجّةٍ.

التّرتيبُ الرّتبيُّ لا الزّمنيّ؛ لأنّ عدمَ الإذنِ لهم مقارنٌ لبعثِ الشّهيدِ عليهِم

ويجوزُ في حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾ أن يكونَ للتّرتيبِ الرّتبيّ لا التّراخي الزّمني؛ لمقارنةِ عدمِ الإذنِ لهم ببعثِ الشّهيدِ؛ لأنّهم لمّا أُلجِموا عن الكلامِ معَ تعذّرِ الاستعتابِ كانَ أشدّ هولًا من أن يأتيَ عليهِم بالشّهيدِ[5].

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 226.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 489.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 237.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.

نكتةُ تلوينِ الخطابِ في الآية:

وجعلَ الخطابَ ملونًا باختلافِ التّعبيراتِ من المتكلّمِ المعظّمِ نفسَهُ في قولِه: ﴿نَبْعَثُ﴾، ثمّ الانتقالَ إلى صيغةِ المبني للمفعولِ في قوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾، ولم يقلْ: (نَأْذَن)؛ فإنَّ التّعبيرَ عنْ نفسِه تعالى وردَ بصيغةِ التّعظيمِ لإدخالِ المهابةِ في نفوسِ المخاطبينَ، فإذا أرادَ الحديثَ عن الكافرينَ أوردهُ بصيغةِ البناءِ للمفعولِ بحذفِ الفاعلِ كنايةً عن التّركِ والإهمالِ، وأنّهم لا يؤبهُ لهم فلا يستحقّوا أن يذكروا جزاءَ كفرِهم.

التّركُ والإهمالُ للكافرين؛ إذ لا يؤبهُ لهم فلا يستحقّوا أن يذكروا

دلالةُ النّفي في قولِه: ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾:

وأوردَ النّفيَ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ لدلالةٍ خاصّةٍ، وهوَ أنْ يكونَ النّفيُ كنايةً عن الإبعادِ والطّردِ تمامًا، كما يكونُ الأذنُ تعبيرًا عن الإكرامِ والتّوقيرِ[1].

كنايةً عنِ الطّردِ كما كانَ الإذنُ كنايةً عنِ الإكرامِ

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾:

والمفعولُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ محذوفٌ تقديرهُ: ألّا يؤذنَ لهم في الكلامِ[2]، وكلامهُم هنا اعتذارهُم لقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: 35 - 36]، والسّرُّ في حذفِه مزيدُ احتقارِهم واستصغارِهم بألّا يؤذنَ لهم في الكلامِ أصلًا؛ فإنَّ "المنعَ من الكلامِ أصعبُ من شهادةِ الأنبياءِ عليهم"[3] فضلًا عنْ عدمِ قبولِه لوْ صدرَ منهم، فثمّةَ فرقٌ بينَ منْ يؤذنُ لهُ بالكلامِ ثمَّ يردُّ على وجهِه، ومنْ لا يؤذنُ لهُ منْ أوّلِ الأمرِ، فالثّاني أشنعُ وأبشعُ في التّبعيدِ.

في منعِهم الكلامَ ابتداءً زيادةٌ في الاحتقارِ، وهو أبشعُ ممّن يؤذنُ لهُ ثمّ يردُّ كلامهُ

سرُّ الاسمِ الموصولِ في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

واستعملَ الاسمَ الموصولَ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وسرُّ ذلكَ

الإشارةُ إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ؛ فكفرهُم منَعَهم من الاعتذارِ وأبعدَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(2) ابن عادل، اللباب: 12/ 137.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 296.

الإشارةُ إلى أنَّ صلةَ الموصولِ ﴿كَفَرُواْ﴾ وجحدوا وأصرّوا على كفرِهم هوَ علّةُ بناءِ الخبرِ على الصلةِ، والنعي عليهِم بما ذكرَ من كفرِهم في حيّزِ الصّلةِ[1]، والمعنى: أنَّ كفرهُم علّةٌ لنفيِ الإذنِ عنهم كلامًا واعتذارًا، واستصغارِهم وتركِ استعتابِهم بالرّجوعِ إلى ما يرضي اللّهَ تعالى.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:

الماضي أوضحُ في استحكامِ ثباتِ كفرِهم وتحقّقِهِ

وعبّرَ بالفعلِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّهُ مستحكِمُ الثّباتِ لدلالةِ الماضي على تحقّقِ الأمرِ وثباتِه؛ فإنَّ كفرهُم متحقّقٌ بما أوقعهُ عليهِم منْ آثارٍ حلَّت بهم، وبما آلَ إليه مصيرهُم، وهوَ النّارُ بما أعجزهُم عنْ مخاطبتِهِ وكلامِهِ بأن لم يأذن لهم؛ فإنَّ الأمرَ بكفرِهم قدْ تقررَ وتمَّ وانقضى.

فائدةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَلَا هُمْ﴾:

اهتمامًا بخصوصِهِ وتيئيسًا من حالِهم عندَ أهلِ الموقفِ، فلا طائلَ في استعتابِهِم

وعطفَ قولَه: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ على قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معَ أنّه أخصُّ منهُ؛ فهو من بابِ عطفِ الخاصّ على العامّ اهتمامًا بخصوصِهِ؛ لإفادةِ حقيقةِ أنّهم ميؤوسٌ من الرّضى عنهُم عندَ أهلِ الموقفِ جميعًا؛ لعلمِهم أن لا طائلَ من استعتابِهم؛ فلا يشيرُ أحدٌ عليهِم بذلكَ الفعلِ؛ لأنّ عدمَ الإذنِ يجعلهُم كالمطرودينَ فلا يجدوا إشارةَ استعتابٍ[2].

احتراسٌ من الوهمِ أنّهُ تعالى راضٍ عن الكافرين وأنّهَ لا يريدُ اعتذارهُم

وفي نفيِ استعتابِهم، أيْ: إرضائهم بعدَ عدمِ السّماحِ لهم بالاعتذارِ، احتراسٌ من الوهمِ الّذي قدْ يحصلُ منْ بعضِ النّاسِ أنّهُ تعالى راضٍ عنْ أولئكَ الكافرين، وأنّهَ لا يريدُ اعتذارهُم، والصّحيحُ أنَّ رفْضَ اعتذارِهم تبعيدٌ لهم وتيئيسٌ، وليس منْ رضى اللّهِ عنهم، ولهذا جاءَ نفيُ إرضائِهم واستعتابِهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 443.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 245.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.

دلالةُ تقديمِ الضّميرِ على فعلِ الاستعتاب:

وفي تقديمِ الضّميرِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليّ بعدَ حرفِ النّفي في قولهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ تعريضٌ بأنَّ اللّهَ تعالى يستعتبُ غيرهُم، وهم المؤمنونَ بأن يُرضيَهُم ويغفرَ لهُم[1].

تعريضًا بأنّ الحقّ سبحانهُ يُرضي المؤمنينَ ويغفرُ لهم

فائدةُ إظهارِ الضّميرِ المنفصلِ ﴿هُمْ﴾:

وفي التّعبيرِ بالضّميرِ المنفصلِ في قولهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فائدةٌ معَ جوازِ الاستغناءِ عنهُ؛ فإنَّ ذكرهُ منْ بابِ توكيدِ التّهديدِ والوعيدِ لهم، ففي تركِ إظهارهِ دلالةٌ على أنَّ المستعتبينَ هم الكافرونَ؛ فالإظهارُ في سياقِ الإضمارِ فيهِ منَ التّوكيدِ ما لا يخفى[2].

توكيدُ التّهديدِ والوعيدِ للمخاطبينَ، وأنَّ المستعتبينَ هم الكافرون

سرّ استعمالِ المضارعِ في الختام:

واستعملَ صيغةَ البناءِ للمجهولِ في قولهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وأصلُ الاستعتابِ طلبُ العتبى الّتي هيَ الرّضى بعدَ الغضبِ والمَوجِدةِ، كأن يقالُ: استعتبَ فلانٌ فلانًا، فإذا بُنيَ للمجهولِ باتَ نائبُ الفاعلِ هوَ المطلوبُ إليه الرّضى بعدَ حذفِ الفاعلِ؛ فنائبُ الفاعلِ هنا الضّميرُ المتّصلُ بالفعلِ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾، فيقالُ: اسْتُعْتِبَ فلم يَسْتَعْتِبْ، أو اسْتُعْتِبَ فلم يُعتِبْ؛ جريًا على الأصلِ، وهوَ استعمالٌ ناشئٌ عن الحذفِ، فالأصلُ فيهِ اسْتُعْتِبَ لهُ[3]، وفي حذفِ الفاعلِ هنا العائدِ عليهم منْ بابِ احتقارِهم، وعدمِ التّنويهِ بهم؛ فإنّهُ لا يطلبُ إليهم الرّضى.

لا يطلبُ إليهم الرّضى إشارةً إلى استحقارِهم وعدمِ التّنويهِ بهم

دلالةُ الفعلِ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ عبّرَ بالفعلِ الدّالِّ على العَتْبِ، وهو المَوجِدةُ بصيغةِ الاستفعالِ، ومعناهُ "يُسترضونَ، أيْ لا

لا يُطلبُ إليهم إرضاءُ ربّهم، فالآخرةُ ليستْ دارَ تكليفٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 377.
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.

يُكلّفونَ أنْ يرضوا ربّهُم، لأنّ الآخرةَ ليستْ بدارِ تكليفٍ، ولا يتركونَ إلى رجوعِ الدّنيا فيتوبونَ"[1]؛ ففيهِ تيئيسٌ لهم من أيِّ شيءٍ من رحمتهِ تعالى.

فائدةُ المضارعِ في ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

التّجدُّدُ والاستمرارُ في عدمِ الإذنِ والاستعتابِ، ودوامُ عذابِهم

وفي التّعبيرِ عنْ عدمِ الإذنِ لهم بالكلامِ والاعتذارِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾؛ وكذا عدمِ الاستعتابِ بقولهِ: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فائدةُ الاستمرارِ التّجدّديّ كحالِ المخبرِ عنهُم بقولهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]؛ ليدومَ عذابهُم، كذلكَ فإنَّ انتفاءَ الإذنِ باعتذارِهم، وأنّهم لا ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ متجدّدٌ مستمرٌّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الإذنُ لهُ) و(الإحلالُ لهُ):

الإحلالُ إباحةٌ وتخييرٌ، ونفيُ الإذنِ كنايةٌ عن الطّردِ

استعملَ فعلَ الإذنِ مَنفيًّا في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والإذنُ "هو الرّخصةُ في الفعلِ قبلَ إيقاعهِ"[3]، ويرادفهُ الفعلُ (أحلّ لهُ) من الإحلالِ، وهو الإباحةُ والتّخييرُ بينَ الفعلِ والتّركِ[4]؛ فيكونُ إيرادُ الفعلِ (أذنَ) أدقَّ هنا؛ لأنّهُ لا تخييرَ لهؤلاءِ الكافرينَ في الكلامِ والاعتذارِ، فالفعلُ هنا مذكورٌ على وجهِ النّفي كنايةً عن الطّردِ.

العتاب واللّوم:

العتابُ هو الخطابُ على تضييعِ الحقوقِ، واللّومُ تنبيهُ الفاعلِ على موقعِ الضّررِ

وفي قولهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ استعملَ فعلَ العتبِ بصيغةِ الاستفعالِ، ولم يستعملْ مرادفهُ اللّومَ؛ لأنَّ "العتابَ هوَ الخطابُ على تضييعِ حقوقِ المودّةِ والصداقةِ في الإخلالِ بالزّيارةِ، وتركِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 162.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 357.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 33.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (حلل).

المعونةِ"[1]، وفعلُ الاستعتابِ في الآيةِ بمعنى ردِّهم إلى الدّنيا؛ لأجلِ التّوبةِ، أمّا اللّومُ فهوَ "تنبيهُ الفاعلِ على موقعِ الضّررِ في فعلهِ، وتهجينُ طريقتهِ فيهِ، وقدْ يكونُ اللّومُ على الفعلِ الحسنِ كاللّومِ على السّخاءِ"[2]، وليسَ فيه عَودٌ للتّوبةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 350.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 471.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»